بين فن التاريخ وفن الحرب

١٢ ـ خالد بن الوليـــد *

فى حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهـاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعـير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

الصفحة الثالثة

جرى القتال فى هـذه الصفحة حول الحديقة ، والحديقة تشمل بساتين القرية المسورة بالجدران . وهذه البساتين كثيرة فى قرى اليمامة . والكثير من قرى العارض والوشم والقصيم والسدير له بساتين . فبساتين القرية على ما يتراءى لنا واقعـة فى بطن الوادى ، ولا يعقل أن تكون على ضفته لصعوبة استقاء الماء لأروائها ، لأن الآبار على ما نعلم فى بطن الوادى تتصرف اليها مياه الأمطار

ويذكر المستر فلبى عندما يبحث فى الجبيلة أنها واقعـة على الضفة اليمنى من الوادى ، وأن قبور الصحابة الذين قتلوا فى عقرباء موجودة فى الضفة المقابلة لقرية الجبيلة وعلى مسافة ربع ميل منها . وهذا مما يدل على أن الحديقة واقعة فى الوادى تحيط بها الجدران المبنية بالحجر والطين وعلوها ، أكثر من قامة كما هو شأن الجدران التى تحيط بالبساتين عندنا

ولبى الحنفيون نداء المحكم فهجروا ميدان القتال تاركين قتلاهم فيه لدخول الحديقة واعتصموا بها مؤملين المقاومة فيها

وطارد المسلمون بنى حنيفة الى الحديقة فأحاطوا بها وتوقفوا مدة من الزمن مترددين . وكان التجاء الحنفيين الى الحديقـة وبالاً عليهم

ويظهر من أخبار الرواة أن مسيلمة قتل فى أثناء الهزيمة الى الحديقة برمية حربة . وقد ادعى عدة أناس قتله . وكل فرقة من فرق المسلمين أرادت الاشتراك فى قتله . وكان للحديقة باب أغلقه المهزومون بعد أن دخلوها وقرروا المقاومة فيها الى اللحظة الأخيرة

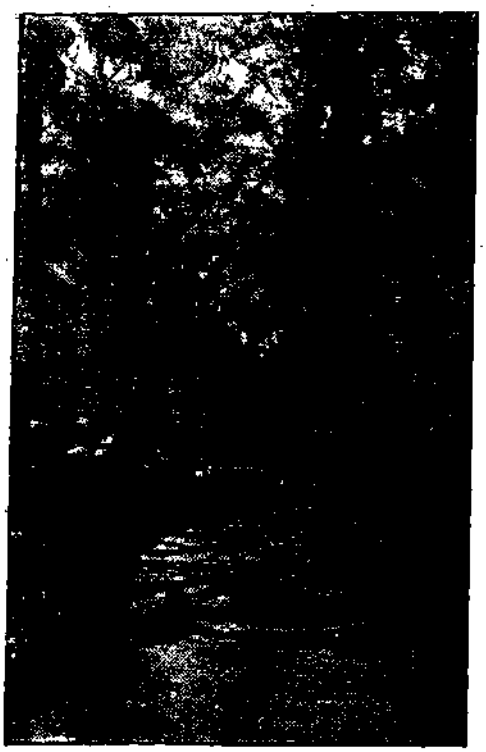

منظر حديقة من حدائق نجد وهو السور بالجدران

(*) وهو بحث فنى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

أوتار صوته صارت ذات رنين كرنين الذهب من جراء الحب ، حتى أن بلابل الوادى كانت تسكت اذا مرّ بها الشاعر لتصغى الى قلب الشاعر وهو يبوح بأول حب له . .

ونقل الآلهة صوت الشاعر بواسطة الراديو وأخذوا يستمعون اليه فى سرور عظيم . .

ثم انقطعت الفتاة عن المجىء الى الربوة ، فانقطع الشاعر عن الأنشاد . .

قلق الآلهة حينما انقطع إنشاد الشاعر ، فأرسلوا رسولاً الى الأرض يأتيهم بالخبر ، وقد خيل اليهم لأول وهلة أن الأنقطاع نشأ عن عطب فى محطة الأذاعة . . فعاد الرسول بعـد قليل من الزمن يقول : إن المحطة لم يصبها عطب ، وانما العطب وا أسفاه أصاب قلب الشاعر فتمزق قطعا تحت شجرة الصفصاف !

كرجة ابو شقرا — صبحى شرقى

وبعد أن تريث المسلمون ردحاً من الزمن ، مترددين فيما يفعلون ، صرخ فيهم البراء بن مالك قائلاً : « احملونى الى الجدار حتى تطوحونى عليه » . فساعدوه على التسلق ومع أن رواية ابن اسحاق تزعم أن البراء وحده تسلق الجدار فاقتحم الحديقة وقاتل الحنفيين على الباب حتى فتحه للمسلمين ، إلا أننا نجزم أن رجالاً آخرين تسلقوا معه الجدار وكان بعضهم على الباب

وبعد أن دخل المسلمون الحديقة أوقعوا بالحنفيين إيقاعاً ذريعاً ، وكانت مذبحة لم يشهد المسلمون مثلها وقد سموها حديقة الموت ، ومع أن روايات الطبرى جميعاً تروى أن المسلمين قتلوا جميع الحنفيين فى الحديقة ، إلا أن رواية ينقلها ابن حبيش تزعم أن بعض الحنفيين فر من الحديقة بعد أن دخلها المسلمون

وفى رواية يذكرها ابن حبيش والبلاذرى أن نساء المسلمين أيضاً اشتركن فى المعركة . ولقد كسب المسلمون المعركة بعد أن حاربوا من الصباح إلى العصر ، ولم يعلموا بهول المصيبة إلا بعد أن توقفت رحى القتال وراحوا يكشفون عن القتلى فى الميدان

وفى رواية عن أبى سعيد الخدرى الذى اشترك فى القتال أن خالداً أمر السقاة بعد صلاة العصر أن يسقوا الجرحى ، وكان أبو عقيل بين الجرحى فيه خمسة عشر جرحاً . أما بشر بن عبد الله فكانت أمعاؤه خارجة من بطنه . وكل هذا يدل على شدة القتال

الخسائر

يبالغ المؤرخون فى تقدير خسائر الحنفيين . فسيف بن عمر مثلاً يزعم أن قتلى بنى حنيفة بلغوا عشرة آلاف فى المعركة وفى القتال فى حديقة الموت . وفى رواية أخرى يزعم أن عدد قتلى بنى حنيفة بلغ واحداً وعشرين ألفاً ، سبعة آلاف منهم فى المعركة وسبعة آلاف فى حديقة الموت وسبعة آلاف فى المطاردة

ولكننا نستبعد هذا العدد ، إذ سبق أن ذكرنا أن قوة الحنفيين فى معركة عقرباء بلغت عشرة آلاف مقاتل . والثابت أن بنى حنيفة كابدوا خسائر فادحة سواء فى ميدان المعركة لثباتهم فى محلهم ، أم فى الحديقة لأنهم بالتجائهم إليها مكنوا المسلمين من أن يقطعوا عليهم خط الانسحاب فقضوا عليهم القضاء المبرم . ولعل عدد قتلاهم بلغ أكثر من ثلاثة آلاف . ومما يدل على كثرة القتلى فى بنى حنيفة اندثار اسمهم بعد هذه المعركة وعدم اشتراكهم فى الفتوح . ويقول البرنس كاتيانى فى كتابه الآنف الذكر (*) « ان محدثى المسلمين يبالغون فى ذكر خسائر بنى حنيفة . فانهم يذكرون أن كل ذكر بلغ سن الرشد قتل فى المعركة . ومع ذلك فان أحد الأدلة التى تدل على أن الحنفيين كابدوا خسائر لاتتناسب مع عددهم هو أن هذه القبيلة التى كانت قبل الاسلام كثيرة النفوس مرفهة العيش إن لم يكن لديها شىء فان كثرة عددها وحده يجب أن يجعلها ذات حصة كبيرة فى المعارك التى نشبت بعد ذلك . ولكننا نرى أن ذكر هذه القبيلة يكاد يدرس تماماً من تاريخ الاسلام ، وأن اسم الحنفيين لايذكر على الاطلاق حتى على انفراد »

أما خسائر المسلمين فكانت كثيرة بالنسبة إلى عددهم أو مقدار الخسائر التى كابدوها فى المعارك السابقة . فالروايات فى عدد قتلى المسلمين مختلفة ، فهى متفاوتة بين ٥٠٠ و١٧٠٠ . ويروى عيسى بن سهل عن جده رافع أن قتلى المسلمين بلغ عددها نصف قتلى الحنفيين ، وأن الأنصار وحدهم (وكان عددهم خمسمائة مقاتل) خسروا سبعين قتيلاً ومائتى جريح . أما أبو سعيد الخدرى فيزعم أن عدد قتلى الأنصار بلغ سبعين ، ويقول زيد بن طلحة أن قتلى المهاجرين بلغوا السبعين وقتلى الأنصار بلغوا السبعين أيضاً وأن مجموع قتلى باقى المسلمين بلغ الخمسمائة .

أما سالم بن عبد الله بن عمر فيذكر أن مجموع قتلى المسلمين بلغ الستمائة . وأما البلاذرى فيقول : « وقد اختلفوا فى عدة من استشهد فى اليمامة فأقل ماذكروه من مبلغها سبعمائة وأكثر ذلك ألف وسبعمائة . وقال بعضهم إن عدتهم ألف ومائتان ، والذى يلوح لنا أن هذا العدد الأخير هو الأصح . وهو يؤيد الرواية التى يرويها الطبرى نقلاً عن سهل إذ يقول : « قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون ، ومن المهاجرين من أهل المدينة والتابعين باحسان ثلثمائة من هؤلاء وثلثمائة من هؤلاء ستمائة أو يزيدون . »

وذكر المؤرخون أسماء الشهداء من المهاجرين والأنصار ونظموا قائمات بذلك . ويتضح من مطالعتها أن بين القتلى زيد بن

(*) Annalli Dell islam

الخطاب قائد القلب ، وأبا حذيفة بن عتبة قائد الميمنة وشجاع بن وهب قائد الميسرة وقيس بن ثابت قائد الأنصار ، ويدل كل ذلك على شدة القتال فى المعركة

يقول ضرار بن الأزور فى يوم اليمامة :

ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت ... عشية سالت عقرباء ومالها
وسال بفرع الوادحتى ترقرقت ... حجارته فيها من القوم بالدم

بعد المعركة

بدأت المعركة صباحاً على ما ذكرناه فيما تقدم وانتهت عصراً ولم يبق وقت للمطاردة . وقد نهك التعب قوى المسلمين وأضاعوا خيرة رجالهم ، واستشهد أكثر حفظة القرآن . لذلك نجزم أن المسلمين قضوا ليلتهم فى جوار الحديقة للترويح عن أنفسهم من عناء الحرب ، تأهباً للمطاردة فى اليوم التالى . ومع أن نتيجة المعركة كانت فاصلة لم تزل أرياف اليمامة فى الخلف (وفيها المؤن والذخائر والقسم الذى لم يشترك فى القتال من بنى حنيفة) ، والقرى فى الأرياف جميعاً منيعة وفيها الحصون والأبراج

ويذكر الطبرى نقلا عن سيف بن عمر أن عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر طلبا من خالد أن ينزل بالناس على الحصون . وكانا يقصدان بذلك ألا يترك مجالا للبقية الباقية من بنى حنيفة لتستعد للمقاومة . أما خالد فلم يشأ محاصرة الحصون ، بل رجح أن يوفد سرايا الخيالة الى الأطراف لتلتقط من ليس فى الحصون ، وكان يعلم أن منازلة الحصون تكبد المسلمين ولا سيما أنهم اطلعوا على كبر الصيبة بعد أن تفقدوا القتلى . وكان من رأيه أن يلقى الرعب فى قلوب بنى حنيفة ويدهشهم بسرايا الخيالة التى تتجول فى حيهم وتقبض على كل من تلقاه . وشأنه فى ذلك شأن القواد الذين لا يريدون أن يضيعوا الوقت فى الحصار ، ويتركوا فلول أعدائهم يفلتون من يدهم .

ولقد أصاب خالد فى رأيه ، لأن سرايا الخيالة أصابت فوق ما وجدت من مال ورجال ونساء وصبيان ، فضمها الى الغنائم فى المعسكر

الصلح

أثبت خالد فى عقده الصلح مع أهل اليمامة أنه سياسى حازم بقدر ما كان قائداً محنكاً

انتهت المعركة وقد خسر المسلمون خيرة رجالهم من الصحابة أما القبائل فقد قتل منها رجال كثير . فالعراك من الصباح الى العصر بتلك الشدة والمقاومة التى أبداها الحنفيون ، مما زاد فى حنق المسلمين عليهم . وكانت القبائل تريد غنماً يوازى التضحية التى تحملتها . أما الصحابة فأقل ما أرادوه العمل بوصية الخليفة وهى « ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان » والداعية الأذان — فاذا آذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن آذنوا سألوهم ما عليهم ، فان أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغى لهم »

فبنو حنيفة لم يجيبوا الداعية ، بل قاتلوا المسلمين وقتلوا نخبة الصحابة وقضوا على حفظة القرآن . فكان عقابهم القتل عملاً بوصية الخليفة ، فالروايات جميعاً تدل على أن الأنصار والمهاجرين كانوا يلحون على خالد بمعاملة بنى حنيفة بصرامة

أما خالد بن الوليد فنظر فى الصعوبات التى لقيها فى التغلب على الحنفيين وتأمل عاقبة الشدة التى يظهرها نحوهم ان هم أبوا وقاوموا فى حصونهم فامتنعوا بها . وقد دلت المعركة على أنهم متفانون فى التضحية . ولا بد من أنه علم أن حزباً من الحنفيين وعلى رأسه سليمة بن عمير يريد المقاومة حتى الموت . لذلك لم يتردد قط لما عرض مجاعة بن مرارة توسطه لعقد الصلح . وكان هذا أسيراً عند المسلمين وقد احتفظ به خالد ليستفيد منه . وكانت الشروط التى فرضها على مجاعة ثقيلة وهى تتلخص فى أن يُعطى الحنفيون كل ذهبهم وفضتهم وسلاحهم وخيلهم ، وأن يسبى جميع الأسرى

حمل مجاعة هذه الشروط وهو يضمر الخير لبنى قومه ويريد أن يخفف حملهم بعد أن أصابهم ما أصابهم ، لذلك أقام النساء والشيوخ على الحصون ليحمل المسلمين على الاعتقاد أنهم يريدون الدفاع عن حصونهم . فرجع مجاعة وأخبر أن القوم لا يقبلون بهذه الشروط الثقيلة ، وأنهم عازمون على الدفاع حتى الموت . وبعد ذهاب وجيئة استطاع مجاعة أن يستميل الحزب المخالف إلى جانبه من جهة ويخفف من شدة الشروط من جهة أخرى

يتبع

طه الهاشمى